مفاهيم ايمانية روحية (١٦)

الطقس بين الروحانية والشكلية

في المؤتمر الكنسي الدولي عن "ليأت ملكوتك"، المنعقد في مايو ١٩٨٠ بمدينة ملبورن باستراليا اجتمع ممثلو كنائس حوالي مئة دولة في العالم، وكان غالبيتهم العظمى من المذاهب التي تنكرت للطقس زمانا طويلا، حاسبة أنه عمل بشري يعوق العمل الإلهي في حياة المؤمن وفي حياة الجماعة، واذا بي أجدهم يمتثلون لطقوس معينة التزموا بها كل أيام المؤتمر. فعلى سبيل المثال في بدء العمل اليومي يدخل ثلاثة مؤمنون حاملين صليبا كبيرا، فيقف جميع الأعضاء يترنمون حتى يبلغ حملة الصليب المنصة ويضعون الصليب في اتجاه معين.

لقد استعار المؤتمر بعض الطقوس الارثوذكسية والأنظمة المتبعة في المذاهب البروتستانية. لكنني أقول بصدق أحسست بدسم طقوس كنيستنا التي نعيشها، كما شكرت الله من أجل اتجاه هذه المذاهب نحو احساسهم بالحاجة إلى طقوس روحية تسند الانسان في عبادته الروحية.

وانني في هذا المقال المختصر أود أن أقدم صورة مبسطة وصريحة لمفهومنا الأرثوذكسي للطقس من جانب انجيلي، موضحا كيف يمكن للطقس – ان مارسناه بطريقة روحية – ان يسند شركتنا مع الله الآب في المسيح يسوع بواسطة روحه القدوس. وان كان الطقس ذاته يمكن أن يكون عائقا للحياة الروحية ومفسدا للنفس ان مارسناه في شكليته الخارجية بلا روح أو فهم.

واني أرجو أن أوضح لماذا جاء وقت فيه ارتبطت كلمة "الطقس" بالشكلية، حتى حسب كل من هو طقسي كأنه غير روحي، فخرجت المذاهب تنادي باللاطقسية وكأنها سمة للعبادة الروحية. لكن سرعان ما اكشف هؤلاء أن هذه الدعوى جلبت آثارا عكسية فدب الانحلال والتراخي وعدم النظام في حياة المؤمن والجماعة أيضا.

الطقس عمل إلهي:

ان كان "الطقس" يعني "الترتيب" أو "النظام" فان الله فريد في طقسيته، خلق كل شئ بترتيب فائق، سواء في خلقته للطبيعة بوجه عام أو جسد الانسان وعقله. حتى اننا بحق نستطيع أن نتلامس معه خلال نظام خليقته العجيب، فنقول مع المرتل "السموات تحدث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه" (مز١٩: ١). ويؤكد لنا الكتاب المقدس "الله ليس اله تشويش" (١كو١٤: ٣٣). هذه هي طبيعة الله نفسه، وليست أمرا تخصه في عهد دون الآخر.

لهذا فلا عجب أن خصصت كلمة الله في العهد القديم أسفارا تتحدث بتفصيل شديد ودقة بالغة عن طقس الكهنوت والذبيحة وبناء خيمة الاجتماع وأدواتها، وطقس العبادة... لقد أراد أن يكون كل شئ بترتيب ونظام!

الطقس في العهد القديم:

إن كان الله قد أعلن عن وجوده خلال الطقس الفائق الذي اتسمت خليقته، فانه قدم شريعة العهد القديم بتفاصيل طقسها لكي يتعرف المؤمنون على طبيعة الله وعمله الخلاصي وملكوته. فكان وجود تابوت العهد في الخيمة يعلن عن سكنى الله وسط شعبه واجتماعه بهم، أما عدم لمس الشعب له فعلامة مهابته وعدم امكانية الاقتراب اليه.

جاءت طقوس الذبائح صورا حية لجوانب متعددة عن الصليب والقيامة، والدخول بالانسان إلى سر المصالحة مع الآب خلال حمل الله الذي يحمل خطية العالم (راجع كتابنا عن اللاويين ص١-٧).

لقد كان طقس الخيمة بأدواتها والعبادة الكهنوتية المقامة فيها رسما للحياة السماوية، كقول الرسول بولس: "الذين يخدمون شبه السمويات وظلها كما أوحي إلى موسى وهو مزمع أن يصنع المسكن لأنه قال أنظر أن تصنع كل شئ حسب المثال الذي أظهر لك في الجبل" (عب٨: ٥).

هذا هو طقس العهد القديم الذي حمل "شبه السمويات وظلها"، فكان طريقا ممهدا لطقس العهد الجديد الذي حمل "عربون الحياة السماوية" ودخولا إليها.

الطقس في العهد الجديد

ليس بغير معنى قال السيد لتلاميذه: "أتكئوهم فرقا خمسين خمسين" (لو٩: ١٤)، انما أراد أن يؤكد أنه يشترط النظام والترتيب لتقديم مواهبه السماوية.

والعجيب أن السيد المسيح لم يأخذ موقفا عدائيا من الطقس اليهودي، فخضع للناموس الموسوي الذي هو بحق واضعه فأختتن في اليوم الثامن، كما كان يدخل الهيكل اليهودي كل يوم يشاركهم طقوسهم، وهو ابن الله المعبود، انما لكي ينقلهم إلى الطقس الروحي بمفهوم سماوي..

قد يتساءل البعض:

هل التزم التلاميذ بطقوس معينة؟

لماذا لم يذكر الكتاب المقدس هذه الطقوس؟

هل من حق الكنيسة أن تضع الطقوس وتدبرها؟

التزام التلاميذ بالطقوس:

بعد صعود السيد المسيح واظب التلاميذ على عبادة الهيكل اليومية (أع٢: ٤٦) بجانب اجتماعهم معا لكسر الخبز ولم يهاجموا الطقس اليهودي، بل أرادوا تكميله خلال اعلان سر الصليب وذبيحة المسيح. ولما طردوا من الهيكل والمجامع اليهودية أفرادا وجماعات لم تعش الكنيسة بلا طقس أو نظام. على العكس نجد الرسول بولس –رسول الأمم– يكرس فصولا بتمامها يحث فيها المؤمنين على مراعاة الطقس (النظام) في العبادة، إذ يقول: "أم تستهينون بكنيسة الله ... ليكن كل شئ بلياقة وبحسب ترتيب" (١كو١١: ٢٢، ١٤: ٤٠).

"نطلب إليكم أيها الاخوة انذروا الذين بلا ترتيب" (١تس٥: ١٤).

"ثم نوصيكم أيها الاخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخ يسلك بلا ترتيب وليس حسب التقليد الذي أخذه منا" (٢تس٣: ٦).

ان كانت كنيسة العهد القديم عاشت بطقسها الذي هو ظل السمويات فهل يسلك التلاميذ في عبادتهم بلا طقس؟

لقد التزمت الكنيسة الأولى بكثير من الطقوس، بعضها من أصل يهودي حمل مسحة انجيلية حية مثل صلوات السواعي (راجع مقالنا عن صلوات السواعي) "باكر – الثالثة (أع٢: ١٥) السادسة (أع١٠: ٩) التاسعة (أع٣: ١) الغروب– قبل النوم– نصف الليل (أع١٦: ٢٥)".

أيضا استخدام المذبح، لكنه ليس لتقديم ذبيحة دموية حيوانية إذ "لنا مذبح لا سلطان للذين يخدمون المسكن أن يأكلوا منه" (عب١٣: ١). هذا هو مذبح العهد الجديد الذي لا يرتبط بشعب معين ولا بمدينة معينة، إذ يقول ملاخي النبي: "لأنه من مشرق الشمس إلى مغاربها اسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يقرب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة" (١: ١٠، ١١). كما يتحدث اشعياء النبي عن مذبح العهد الجديد قائلا: "في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر" (أش١٩: ١٩). والسيد المسيح نفسه يؤكد: "متى قدمت قربانك على المذبح" (مت٥: ٢٣). والرسول بولس اذ قارن بين العبادتين المسيحية والوثنية قال: "لا تقدرون ان تشتركوا في مائدة الرب ومائدة الشياطين" (١كو١٠: ٢١). فان كان قد أشار إلى مذبح الوثنيين بمائدة الشياطين، فانه بالتأكيد يشير إلى المذبح المسيحي بمائدة الرب. (المؤلف: الكنيسة بيت الله، اسكندرية ١٩٧٩).

وعن الأنوار في الكنيسة يتحدث سفر الأعمال عن المصابيح الكثيرة التي كانت في العلية (أع٢٠: ٨)، فما الحاجة لذكر المصابيح الا للكشف عن طقس وجود الأنوار في أثناء اجتماعات الكنيسة.

لماذا لم يذكر العهد الجديد الطقوس المسيحية؟

١- في العهد القديم كان الله يتعامل مع الشعب اليهودي كأطفال قصر وتحت الوصاية لعدم نضجهم روحيا، لهذا التزم من جانبه بتقديم تفاصيل دقيقة عن الطقس الذي يمارسونه، حتى يأتي ظلا للسمويات. أما في العهد الجديد فقد وهب للكنيسة الروح القدس يقودها ويسندها ويرشدها في ترتيب أمور عبادتها بروح انجيلي سماوي.

٢- لو أن العهد الجديد ضم كل طقوس الكنيسة في عصر الرسل لحمل الكتاب أمورا كثيرة (قبل طقس العماد، وطقس الزواج، ليتورجية القداس الالهي، الصلاة على الراقدين، طقس سيامة الأساقفة والكهنة والشمامسة... الخ.)

قد تشتت فكر القارئ خاصة البسيط، لكن الكتاب أراد أن يركز على عمل الله الخلاص كمركز للحياة المسيحية والعبادة. وقد شهد الكتاب بذلك اذ يقول:

"أما الأمور الباقية فعندما أجئ أرتبها (أطقسها)" (١كو١١: ٣٤).

"لأجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة قسوسا" (تي١: ٥).

"اذ كان لي كثير لأكتب اليكم لم أرد أن يكون بورق وحبر، لأني أرجو أن آتي اليكم وأتكلم فما لفم ليكون فرحنا كاملا" (٢يو١٢).

" وكان لي كثير لأكتبه، لكنني لست أريد أن أكتب اليك بحبر وقلم، ولكنني أرجو أن أراك عن قريب فنتكلم فما لفم" (٢يو١٣، ١٤).

هل من حق الكنيسة أن تضع الطقوس

كنيسة العهد القديم وهي في دور الطفولة الروحية قام بعض القادة مثل موسى ويشوع وداود بوضع بعض انظمة العبادة لقومهم (١أي١٦: ٤، ٢٣، ٢٤) وساروا عليها دون أن يحيدوا عنها، وكأنها من قبل الله.

كذلك فرضت أستير ومعها مردخاي على الشعب أن يعيدوا "الفوريم" (أس٩: ١٠-٣٢) بطقس بمعين، دعي في سفر المكابيين الثاني (١٥: ٣٧) بيوم مردخاي.

وفرض يهوذا المكابي عيد التجديد على قومه سنة ١٦٥ ق.م. تذكارا لتطهير الهيكل وتجديده، وقد حضره السيد المسيح بنفسه والقى فيه خطابا (يو١٠: ٢٢) ولا يزال اليهود يحتفلون به.

هذا بالنسبة للعهد القديم، فكم بالأكثر في العهد الجديد، ألا يسمح للكنيسة تحت قيادة الروح القدس أن تدبر طقوس عبادتها وتنظمها؟! لقد سامت الكنيسة أساقفة وقسوسا (أع١٦: ٢٣، ١تي٤: ١٤) وانتخبت شمامسة (أع٦: ٦) واعطت للكنيسة أن تفصل في دعوى المؤمنين (١كو٦: ١) كما قدمت تشريعات ونواميس مثل الخضوع للسلطات الزمنية (رو١٣: ١)، وأوصت بدعوة القسوس للصلاة على المرضى ودهنهم بالزيت باسم الرب (يع٥: ٢٤)... هذه كلها حملت طقوسا وضعتها الكنيسة الأولى بروح رسولي انجيلي... ولم يتوقف عمل روح الرب عبر الأجيال في تدبير الطقس المسيحي من كل جوانبه بما يشبع احتياجات المؤمنين في المسيح يسوع ربنا.

قد يتساءل البعض: هل من حق الكنيسة في هذا العصر أن تعدل في الطقس؟ نجيب بأننا نلتزم أن نسلك بروح الكنيسة الأولى، الروح الانجيلي الرسولي الآبائي... وقد سبق معالجة هذا الموضوع أثناء دراستنا للتقليد الكنسي والحياة الحاضرة. (التقليد والارثوذكسية، ١٩٨٠، ص٢٧).

الطقس والسماء:

نظرة سريعة إلى سفر الرؤيا تكشف لنا أن السماء ذاتها لها طقسها، لها تسابيح معينة، ويوجد سجود، ويحمل القسوس غير المتجسدين أكاليل ومعهم جامات ذهبية... كما يصف القديس يوحنا أورشليم وأبوابها وأساساتها

وصورها وهيكلها، ووجد على أبوابها اسماء الاثنى عشر سبطا وعلى أساساتها أسماء الاثنى عشر تلميذا (رؤ ٢١) الخ...

ان كانت السماء لها طقسها الروحي، فهل نقول أن العهد الجديد في روحانيته يسمو فوق كل طقس ويلغيه؟!

ينتقد البعض في الطقس ترديد كلمات محفوظة، ونسوا أن السيرافيم يرددون كلمة واحدة "قدوس، قدوس، قدوس" بلا انقطاع دون ملل في روحانية سماوية بغير فتور. انهم يكررون الكلمة لكنهم لا يكررونها باطلا لأنها تخرج عن قلب ملتهب حبا وأن المشكلة ليست في التكرار في ذاته وانما في الفتور والجفاف الروحي الذي يصيب المتعبد فيجعل التكرار باطلا.

والعجيب أن الغالبين على الوحش وصورته يرتلون ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف (رؤ١٥: ٣)، وكأنهما تسبحة واحدة، إذ ما تترنم به كنيسة الحمل هي ذات تسبحة موسى بفهم انجيلي...وهي بعينها ترنيمة السماء! ما أجمل ربط الطقس القديم بطقس كنيسة العهد الجديد، وربط السماء بالعهدين معا!!

يطول بنا الوقت ان قارنا بين طقس السماء وطقس كنيسة العهد الجديد، حتى قيل عن الكنيسة انها "أيقونة السماء".

الطقس وتقديس الجسد:

سبق ان قلنا أن الطقس يمثل عنصرا أساسيا في العبادة الليتورجية والعائلية والخاصة، اذ تعني شركة الجسد مع الروح في التعبد لله. (المؤلف: التقليد والارثوذكسية ص٣٣).

ارثوذكسيتنا تؤمن بالانسان في وحدته، لا تتجاهل الجسد لحساب الروح، انما تؤمن بتقديس الروح والجسد معا بالروح القدس، بكل طاقاتهما، يشتركان معا في العبادة، ويشتركان أيضا في الأمجاد السماوية.

اننا نعبد الله "بالروح والحق"، لا بمعنى نعبده بأرواحنا دون أجسادنا، انما نعبده بالروح القدس الذي هو "الحق"، والذي يقدر أن ينطلق بالانسان ككل للاتحاد مع الله في المسيح يسوع.

الطقس بكل اصنافه وما يحمله من تسابيح والوقوف في الصلاة بخشوع، وبسط اليدين، والسجود وقرع الصدر وتقديم بخور الخ... ليست حركات جسدية مجردة، لكنها هي عمل الانسان ككل. كل تصرف يمارسه الجسد يسند النفس المتيقظة في عبادتها، كما أن كل تصرف شرير للجسد يحطم النفس ويعوقها عن الشركة مع الله.

ان الطقس هو لغة الانسان التي لا يستخدم فيها لسانه فقط بل أكثر أعضاء جسده، ليعبر بها عن نفسه فيما تعجز اللغة العادية أن تعبر عنه... وهو تعبير يخرج عن الجسد متفاعلا مع أعماق النفس الداخلية.

الطقس وتقديس الخليقة:

في الطقس ليس فقط ينساب الجسد مله متعبدا لله، وانما أيضا نشرك الخليقة في تمجيد الخالق، وكأن الانسان يتقدم لله ومعه البخور والخشب (الايقونات) والخبز والخمر... معلنا أن كل الخليقة تمجد الله. وكأنه يقول مع المرتل: "سبحي الرب من الأرض... أيتها النار والبرد الثلج والضباب..." (مز١٤٨).

الخليقة الجامدة ليست عائقا عن العبادة، بل يستخدمها المؤمن في التعبير عن تقديس كل ما على الأرض لله.

الطقس وإيماننا:

خلال الطقس تقدم الكنيسة كل العقائد المسيحية والمفاهيم الايمانية والمنهج الروحي في أبسط أسلوب، يفهمه الطفل، ويشبع به الرجل المتعلم. فبرشم الصليب يتعلم الطفل الايمان بالثالوث القدوس، وخلال الايقونات يدرك امتداد الكنيسة كجسد المسيح حتى بعد الرحيل من هذا العالم... الخ.

طقس سر الزواج مثلا اذ تدور أغلب الصلوات حول "الاكليل السماوي والزواج الروحي بين الله وقديسيه" يدرك المؤمنون أن ما مارسوه بطريقة روحية ان الزواج المسيحي هو ظل للسر الأعظم: اتحادنا مع الله في المسيح يسوع... الخ

لماذا هوجم الطقس:

للأسف اذ دخلت الكنيسة الغربية في العصور المظلمة في صراع مع السلطة الزمنية انشغلت بالمجد الزائل ففقدت سر قوتها الروحية الداخلية، هنا ركزت على الطقس كعمل خارجي وقوانين جامدة بلا روح. قامت الحركات "ضد الكهنوت Anticlerical" تحطم الطقس الكنسي لعلها بهذا تعود الكنيسة إلى روحانيتها، لكنهم بهذا فقدوا جانبا حيا من العبادة والروحية. فظهرت الآن بعض الاتجاهات للعودة إلى الطقس من جديد، إذ أحسوا أن فيه سر وحدة الكنيسة وانسجامها، وانه جزء لا يتجزأ من حياة الكنيسة يحفظ إيمانها وروحانيتها.

إذن فالمشكلة ليست في الطقس، إنما في ممارسته كعمل روتيني جامد وجاف وبلا فهم... لهذا فمن واجب الكنيسة أن تكشف عن طقوسها وتشرحها للشعب وتقدم وعيا روحيا سليما حتى لا يمارسه الشعب بطريقة خاطئة.